أولاً رحلة المعرى

٣٦٣ هـ - ٤٤٩ هـ

٩٧٣ م - ١٠٥٨ م

لاشك أن أبا العلاء المعرىّ فى مقدّمة مَنْ يَصْدق عليهم القول بأنهم خيرُ من يقدمون أنفسهم فى كل خطوة، من رحلة الحياة[١]، مَنّذ وُعَىَ وسجلّ اعترافاته، شعراً ونثراً، عن سيرة حياته ومعاناته، إلى أن رحل عن الدنيا التى نفض يده وروحه منها، من البداية، بعد أن سجّل فلسفته فى الحياة والموت، بكل صدق وأمانة واخلاص.

ولد مع نهايات ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة وتوفى فى نفس شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة هبط إلى الدنيا فى مدينة تقع فى وادٍ بين مرتفعات، يقال لها: «مَعَرّةُ النّعمان» نسبة إلى النعمان بن بشير الأنصارى.

اسمه المتكامل: أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخى المعرى، اللغوىّ الشاعر.. رهين المحبسين، أو رهن السجون كما قال عن نفسه:

---

(١) د. عائشة عبدالرحمن: أبو العلاء المعرى من سلسلة أعلام العرب (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر-الهيئة المصرية العامة للكتاب المقدمة(٤).

أرانى فى الثـــلاثة من سُجُونى

فلا تســـأل عن النبإ النبيـث

لفقدى ناظـــرى، ولزوم بيتى

وكون النفس فى الجسد الخبيث[1]

وعلى الرغم من ولادة أبى العلاء فى عصر انحلال الدولة العباسية وشيخوختها، فقد نشأ فى عصر بلغت فيه الثقافة العربية الإسلامية أعلى ذُراها [2] بعد أن هضمت ونشرت تراث مختلف الحضارات اليونانية والهندية والفارسية، وأرست أصول علوم الدين والفقه والتفسير، والحديث واللغة والآدب والشعر والكلام، والفلسفة والطبيعة والكيمياء، والرياضيات والفلك وغيرها مما فاضت به خزائن الكتب فى عواصم البلدان المتنافسة فيما بينها على الفضل والعلم والآداب.

كما نشأ المعرىّ مع الجيل الذى بدأ العربّى المسلم فيه، يشعر

---

(١) المعرى: اللزوميات.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف: مجلة تراث الإنسانية ٢/ ٥٧ .

بحاجته إلى توكيد ذاتيته، (داحضا تُهمة العُجْمة عن نسبه ولسانه[1]).

وكانت أسرته من سلالة عريقة فى الفضل والعزة والعلم والأدب يتولى أبناؤها قضاء المدينة وماجاورها، وكان أكثر قضاة المعرّة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بنى سليمان، الجدّ الخامس لأبى العلاء، وَلِىَ حفيده أبو الحسن سليمان بن أحمد القضاء، ثم تولاه من بعده، ولده أبو بكر محمد، جد والد أبى العلاء وَخَلَفَهَ ولده أبو الحسن سليمان بن محمد جد أبى العلاء مباشرة وكانت جّدة أبى العلاء لأبيه (أم سلمة) من رُواة الحديث الشريف وقد عاشت حتى بلغ حفيدها أبو العلاء سنّ الطلب.. من هنا لانجد أية غرابة فى أن يفتخر أبو العلاء بنسبه وأسرته وقبيلته فيقول فيما يقول:

أتمشى القوافى تحت غير لوائنا

ونحـــنُ على قُوّالهـــا أُمـــراء؟

(١) المرجع السابق للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف وارجع أساسا إلى المصادر القديمة ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/ ٤١، والخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ٤/ ٢٤٢، وياقوت: معجم الأدباء ١/ ١٦٢.

وأىُّ عظيــم رابَ أهــل بــلادنا

فإنَّــا على تغييــره قُــدراءُ

وما سلبتْنــا العــزّ قطُّ قبيلة

ولابــات منا فيهمــو أُســراءُ

ولاسار فى عرض السماوةِ بارقٌ

وليــس له من قومنــا خُفــراءُ

ولاشك فى أن المصادر التاريخية والأدبية تجمع[1] على حقيقة واحدة مُرّة كل المرارة، حين تؤكد أن ولادته كانت يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٣٦٣هـ.. ورغم أن مغيب الشمس أو مشرقها لا يؤثر فى حظوظ المواليد، فإن هؤلاء المؤرخين اعتبروا ولادته مع المغيب من يوم الجمعة آخر الأسبوع، لثلاث بقين من الشهر فى أُخرياته، كل هذا اعتبروه فاتحة استقبال جازع فاجع لميلاد وحياة وفكر وعقل أبى العلاء!!! ولم تمض إلا سنوات ثلاث أيضا أو أربع، حتى يفجع أبو العلاء بفقد بصره، حين اعتل علة الجدرىّ التى ذهب فيها بصره..

(١) المصادر السابقة للخطيب البغدادى وابن خلكان وياقوت.

وهكذا شاع ليل الظلام فى دنياه وفى نفسه وهو بعد طفل متوقّد الذهن، يستقبل الحياة.. ومن ذلك الحادث المؤلم الفاجع تبدأ رحلة أبى العلاء مع الدنيا والآخرة معاً، فى صراع متواصل صباح مساء.. فى نضاله من أجل الأمجاد والبطولات الفكرية والعقلية، فى شجاعته التى لامثيل لها وهو يؤكد ذاتيّته، وهو يرسى مكانته فى تاريخ العقول، وفى صرح الأدب العربى الرفيع، على مر الدهور، وتلاقى الحضارات والثقافات.

وأبو العلاء فى كل هذا الذى عاشه وعاناه، كان صامداً لمأساته، تشرق فى دنياه العابسة المظلمة، بوارق الآمال، حتى إن هؤلاء المؤرخين الكرام[1]، يروون عنه أنه كان فى شبابه يجالس الظرفاء، ويمضى معهم فى فنون الهزل والجد، ويلعب النّرد والشطرنج!!! ويقول فيما يقول «إنه يحمد الله على العمى، كما يحمده غيره على البصر..» ومع ذلك كان لاينسى أبداً أن يؤكد أنّ ضجعة القبر من مزاياها الحميدة «أن تأمن العين المنطفئة فى الثرى من أى عمىً أو رَمَدَ.

إذا أطفئتْ فى الثرى أعينٌ * فقد أمِنَتْ من عمىً أو رَمَدْ

يالِلمأساة يا أبا العلاء ويالِلمأساة الملهاة فى الحياة يا أبا العلاء..

(١) المصادر السابقة لمعجم الأدباء، وتاريخ بغداد، ووفيات الأعيان.

لقد كان أكبر ما يميّزه، هو الاعتزاز بالنفس كشأن سائر أسرته، فانصبّ اعتزازه بنفسه على العلم والعقل والأدب، وكان محقاً فى أن يرى لنفسه الحق كل الحق أن يتبّوأ أعلى ذروة فى هذه الدنيا رغم ما واجهته هذه الدنيا منذ ولادته وصباه وشبابه وشيخوخته وكهولته.. فليكن فيلسوفاً إذن، نعم ليكن فيلسوفاً من البداية إلى النهاية، وليفجرْ فى النهاية التى عاشها من البداية، فكراً خالدًا فى تاريخ الآداب والفنون والفلسفات، ولتكن أولى خطوات حياته، فكرته الأولى الحاسمة: (هذا جناه أبى علىّ وما جَنَيْتُ على أحد).

لقد قرر من البداية أمر حياته بإرادته وحريته فى ألايتزوج حتى لايكرر ويواصل المأساة ويجنى على غيره، وهو أرحم الناس بالناس كما هو أرحم الناس بنفسه لنفسه، وليقتحم ساحة الحياة، والناس، فيلسوف الحياة، قبل أن يكون فيلسوف الموت، أو فيلسوفهما معاً وجميعاً، بكل الملابسات والمتناقضات والمتضادات، من الإيمان بالعقل، إلى عدم الإيمان به، من حيرته أمام قوة العقل إلى حيرته أمام ضعفه، ضعف هذا العقل، أمام كثير من أحاجى الكون والغيب، ثم استسلامه كثيراً مع ضراعاته الباكية، أمام القدرة الإلهية التى لايُعجزها، ما يَمْتَنِعُ على العقول، أوما تتحير

معه العقول «والله القادر على كل بعيد، لايعجزه ممتنع فى العقول، وهو مكون المعجزات، لايرد عليه عجب، ولاعجب من أمر الله[1]».

ومع ذلك فإننى أعتقد أنه اعتمد، حتى على عقله فى إنكار عقله لما هو فوق قدرته، إن هذه قضية عقلية فيما أعتقد عاشها وأدركها أبو العلاء، أبو العلاء الذى يقول:

إذا تفكّرت فكراً لايمازجُهُ فسادُ عقلٍ صحيحٍ هانَ ما صَعُبا[2].

فاحذر ولاتدع الأمور مُضاعةً
وانظر بِقلبٍ مفكّرٍ مُتبصّرِ[3]
تركتَ مصباح عقلٍ ما اهتديت به
والله أعطاك من نُور الحجا قبساً[4]
وإنك إن تستعمل العقل لم يزلْ
مَبيتُكَ فى ليل بعقلك مُشْمِسِ[5]

---

(١) المعرى: اللزوميات: ١/٤٥/٤٧/٦٨/١٦٩/٣٧٥.
(٢، ٣) المصدر السابق ١/١٠٤/٣٩٨، ٢/٢٢/٢٨-٣٠.
(٤، ٥) المصدر السابق ١/١٠٤/٣٩٨، ٢/٢٢/٢٨ ـ ٣٠.

وهو المعرى الحصيف الذى قال فى شيعة الإمام المعصوم ودعوى انتظار المهدى المنتظر قدومُهُ وبعثه:

يرتجى القومُ أن يقوم إمام * ناطق فى الكتيبة الخرساء كَذَبَ الظُنّ.. لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء[1] وهو أبو العلاء الصادق الذى كشف عن أدوات الطغاة من الحكام والولاة والمنافقين من العلماء! والـمُصفِّقين من الجماهير.

تَلَوْا باطـــلاً وجَلَوْا صـــارماً

وقالوا صدقنا فَقُلْنا نَعَمْ![2]

وهو هو المعرّى الذى أكدّ أنه لايقين، إلا فى أن نموت وتبلى أجسادنا:

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى

يـراد بنا والعلم لله ذى المن[3]

أمـا اليقـين فـلا يقـين

وإنما أقصى اجتهادى أن أظنّ وأحدسا[4]

(١، ٢) المصدر السابق من اللزوميات ١/ ٦٥.

(٣) سقط الزند (١/ ١٩٥)، اللزوميات (٢/ ٢٣).

(٤) اللزوميات (١/ ٦١).

وهو هو المعرّى الذى يدرك وحده مأساته، مأساته فى عقله، وهى مأساة أصحاب العقول جميعا:

فَهِمُ الناسِ كالجهولِ، وما يظفرُ إلا بالحسرة الفُهَماءُ!

ماذا يصنع أبو العلاء إذن؟ أما وقد واجهته الدنيا من البدايات الأولى فى حياته بمأساة عينيه، فليواجهها بالازدراء والتحّدى ولْيَستَهِنْ بها بإضافة قيود جديدة يختارها هو بحريته إلى قيدهِ المفروض عليه من البداية:

تأملنا الزمـان فما وجـدنا

إلى طيـب الحيـاة به سـبيلا

ذَرِالدنيا.. إذا لم تحظ منها

وكُنْ فيهـا كثيـرا أو قليـلاً

وأَصْبْح واحدَ الرجلين.. إمّا مليكاً فى المعاشر أو أبيلا[1]

هذا ما يقوله للناس ولنفسه، لكنه وهو المناضل الصامد، يؤكد لنفسه أنه لن يسلم سلاحه أبدا، فهو مصّر فى عنف وعناد على اقتحام معركة الوجود كله[2].

(١) الأبيل: الراهب الزاهد فى الدنيا. وانظر المصادر السابقة للمعرى فى اللزوميات وسقط الزند.

(٢) المصادر السابقة فى سقط الزند، واللزوميات.

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل

عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

وأغدو ولو أنّ الصباح صوارم

وأسرِى ولو أنّ الظلام جحافلُ

يهم الليالى بعض ما أنا مُضمر

ويثقل «رَضْوىَ» دون ما أنا حاملُ

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم

بإخفاء شمسٍ ضوؤها متكاملُ

ولى منطق يشتاقه كلُ سيّدٍ

ويقصر عن إدراكه المتناولُ

يُنافسُ يومى، فىّ، أمسى، تشرفاً

وتحسد أسحارى علىَّ الأصائلُ

وإنى وإن كنتُ الأخير زمانهُ

لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

ليس هذا فقط، بل إن أبا العلاء يصف لنا إقباله على الحياة، آخذا لنفسه منها بعض اللهو والطرب، مع فنون الهزل والجد، واللعب بالنّرد والشطرنج، نرى هذا على سبيل المثال فى سقط الزند وغيره وهو يصف فى دقة تفوق المبصرين إحدى لياليه:

رُبَّ ليل كأنه الصبح فى الحُسن
وإن كان أســـود الطيلسانِ
قد ركضنا فيه إلى اللهـو حتى
وقف النجم وقِفة الحـيران
وكأنى ما قلتُ والبـــدرُ طفـل
وشباب الظلام فى العنفوان
ليلتى هـذه عروس من الزنـج
عليها قـلائد من جمـــان
هَرَب النـوم من جفـونىَ فيها
هَرَب الأمْن من فؤاد الجبان
وكـــأن الهـــلال يهـوى الثريا
فهمـا للـوداع معـتـنقـــان

وسُهَيل كَوَجْنة الحِـــبِّ فى اللّـون

وقلـــب المحـــب فى الخفقـــانِ

يُســـــرع اللمح فى احمـــــرار

كما تُسرع فى اللمح مُقلةُ الغضبان

ثـم شـاب الـدجيُ فَخَاف من الهجر

فَغطَى المشـيب بالزعـفـــــران

ولكنه ما يلبث أن تفزعه الفواجع والمواجع، وكيف ينسى وهو لاينسى أن يفتتح هذه القصيدة السالفة:

(ليلة لهو) بقولها الحزين:

عَلِّلانى.. فإنّ بِيض الأمانيِ

فَنِيَتْ.. والظلام ليس بفانِ

كم أردْنا ذاك الزمـــانَ بمدحٍ

فَشُغِلْنا بذمّ ذاك الزمـــانِ!

ويقول فى استسلام مرير[1]:

أرى العنقاءَ تكـبرُ أن تُصادا

فعانـــدْ من تطيق له عنـادا

(١) المصادر السابقة للمعرى فى اللزوميات وسقط الزند.

ومانَهْنَهْتُ عن طلب. . ولكن
هى الأيام لا تُعطى قيـــادا
نلـــوم على تبلُّدها قُلُوبـــاً
تكابدُ من معيشتها جهـــادا
إذا ما النار لم تطعم ضرامـا
فَأَوْشكْ أن تَمرّ بها رمـــادا
ولّما أن تجهَّـمَ لىُ مـــرادى
جَرَيْتُ مع الزمـان كما أرادا
وَهَوَّنْتُ الخطـوب علىَّ حتى
كأنىّ صـــرتُ أَمْنحَهُا ودادا
أَأُنْكـرها ومنبتها فـــؤادى؟
وكيف تُنكَّرُ الأرضُ القتادا؟

وتصيب أبا العلاء لطمة أخرى قاسية بموت أبيه، الذى فَقَد فيه، أباً رحيماً، ومعلماً صديقاً، عام ٣٩٥هـ، حيث قال عنه فى قصيدته النونية الرائعة. . الطويلة الباكية:

نقمتُ الرضى حتى على ضاحِك المزُنِ
فلا جادنى إلا عبُوس من الدجـــن

فليت فمى إنْ شـــام ســـنّى بَسّمـاً
فم الطعنـة النجـــلاء تدمـى بلاسنّ

أبى . . حكمتْ فيه الليالى . . ولم تزلْ
رمـاحُ المنايا قـــادرات على الطعـــن

قَضَى طاهر الجثمان والنفس والكَرَى
وسُهدِ الُمنى والجيب والذيـــل والردن

فياليت شِعـــرى هل يخف وَقَـــارُهُ
إذا صار «أحْدٌ»[1] فى القيامة كالعِهنِ؟

وهـــل يَرِدُ الحـــــوض الروىَّ مُبادراً
مع الناس . . أم يأبى الزحام فَيَستأنى؟

جَهلْنا فلم نَعْلَمْ على الحِرْصِ ما الذى
يُـــراد بنا . . والعلم لله ذى المـــــنَّ

إذا غُيَّب المـــرء اسْتُسِرَّ حـديثُـــهُ
ولم تُخبر الأفكـــارُ عنهُ بما يُغـــنى

---

(١) يقصد جبل أحد يوم القيامة وقد صار (مثله مثل الجبال) كالعِهن المنفوش كما يقول القرآن.

فيـــاقبرُ . . واهٍ من تُـــرابـــك لَيِّناً

عليــه وآهٍ مــن جــنادلك الخشــنِ

سأبكى إذا غَنىّ ابن ورقاءَ . . بهجة

وإن كان ما يَعنيه ضدّ الذى أعنيِ !!

وأحملُ فيك الحُزن حياً فإنْ أمــت

وألقَكَ لم أسْلُكُ طريقاً الى الحزُنِ[1]

ويكاد أبو العلاء، من أثر فجيعته فى فقد أبيه، أن يلقى سلاحه ويسرع الى مَحْبسه وسجنه، لكنه ما يلبث صموده وعنادُه وتمرُّسه بالآفات والبلايا، أن يتحرك ليفكر فى الهجرة إلى بغداد سنة ٣٩٨هـ وعند نهايتها، بعد ثلاثة أعوام من وفاة أبيه . .

ويتلمس العزاء فى حياة أمه التى يذهب إليها ليستأذنها، واجداً فيها العوض عمن فقد . . وتدرك الأم إصراره، فتأذن له، بعد أن أيقنْت أنه جاد فى عزمه، ويمضى أبو العلاء ليقنع نفسه بأنه قادر على مواصلة النضال، لكنه عند وداعه لأمه، ينفجر بكاء وشجناً وأسى، كأنما حدّثة قلبه البصير بأنه فراق ليس بعدة لقاء . .

(١) المصدر السابق والقصيدة طويلة رائعة جدا .

ونسمع صوت أبى العلاء وكله شجن، حين كانت تدب خطواته على مشارف العراقِ فى بغداد:

وأذهل.. أنى بالعراق على شفا

زرى الأمانى لا أنيسٌ، ولامـــالُ

مُقلّ من الأهلين، مالٍ وأســـرة

كَفَى حَزَناً... بَيْنْ مشتٌّ وإقلالُ

سيطلبنى حظى الذى لو طلبتــهُ

لما زادَ، والدنيا حظوظ وإقبال![1]

ويشارك حظه العاثر (إن صحت هذه التداعيات عليه) أن يكون يوم وصوله إلى بغداد، موت الشريف الطاهر، والد الشريفين الرضى والمرتضى، ويمضى أبو العلاء ليعزى صديقيه الحميمين الشريف الرضىّ، والشريف المرتضى العلويّنْ، ونرى رواية غريبة[2] تقول فيما تقول، إن أبا العلاء، حين اقتحم الحشد الكبير، كان قد تخطى أحد الناس عن غير قصد، فقال له فى غضب ولم يعرفه: إلى أين يا كلب؟ فقال المعرى فى هدوء:

---

(١) المصادر السابقة للمعرى.

(٢) د. عائشة عن الرحمن: المعرى المصدر السابقة (١٠٠).

الكلب هو من لايعرف للكلب سبعين اسما! ثم جلس فى الحال فى أخريات المجلس الكبير، إلى أن قام الشعراء وأنشدوا مراثيهم، وعندها وقف أبو العلاء فى النهاية وارتجل قصيدته فى رثاء الفقيد وكان مطلعها:

أودى فليت الحادثات كفاف..

وعندها يهرع إليه الشريفان الرضى والمرتضى ليحيّياه ويشكراه ويستقبلاه.

ويمضى فى بغداد عامين اثنين فقط، أقر له سادة بغداد وعلماؤها بأنه أعجوبة الزمان، ورغم أن أبا العلاء أكد ذاتيته حين «كان[1] يوما بمجلس المرتضى وقد جاء ذكر أبى الطيب المتنبى وكان الشريف المرتضى لايحب المتنبى، فتنقصه وجعل يتتبع عيوبه فما كان من أبى العلاء [وقد وضع كتاباً خاصا عن المتنبى وهو مُعجز أحمد] إلا أن اعترضه بكل شجاعة وثقة وصدق وقال:

لو لم يكن للمتنبى من الشعر إلا قصيدته:

«لك يا مَنَازلُ فى القلوب منازل»

(١) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار.

لكفاه فضلاً، وهنا غضب السيد المرتضى وأمر بطرد المعرى من مجلسه فى مهانة، وقال (المرتضى): أتدرون أى شىء أراد (الأعمى) بذكر هذه القصيدة؟ فإن للمتنبى الكثير لكن المعرى أراد قوله:

وإذا أتتك مذمتى من ناقصٍ فهى الشهادة لى بأنى كامل.

وكانت صدمة أبى العلاء فى بغداد عنيفة حين تركها عام ٤٠٠هـ ورجع يائسا، سيئ الظن بها وبالناس، وبزحام النفاق، وادعاء العلماء، وجهالة الرؤساء، وزادت فجيعته حين وافاه فى طرق عودته إلى معرة النعمان من جديد نبأ وفاة أمه، فوقع النبأ فى نفسه وقوع الصاعقة.

مَضَتْ وقد اكتهلتُ فخلتُ أنىَّ

رضيع ما بلغت مَدَى الفِطام

سألتُ متى اللقاء.. فقيل حتَّى

يقوم الهامدون من الرجـام

فَلَيْت أَذين يـوم الحشـر نادَى

فأجْهشتِ الرمامُ إلى الرمـام

واعتكف أبو العلاء فى داره، وقرر قراره الأخير فى أن تكون داره قبراً له، قبل رحيله إلى مقره الأخير، وهناك أملى رسالة إلى خالة: أبى القاسم علىّ، بحلب وحدد فيها يوم الحشر للسلوان موعدًا أخيراً.. «كتابى إليك أطال الله بقاء سيدى.. من مرة النعمان، ولكل نبأ مستقر، وَرَدْتُها بعد سآمة ورود كعب بن مامة، فإنا لله وإنا إليه راجعون..» وصلى الله على سيدنا محمد وعترته صلاة يثقل بها لسانى حزنا وترجع فى المحشر قدرا ووزنا.

«رَحمك الله من ساكنة رَمْس، أصبحت حياتك كأمس.. فإن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزن مابقى الدهر[1] ونراه- فى يأس مرير- يتمنى الموت فيقول فى لزومياته[2]:

ربِّ متى أرحل عن هذه الدنيا فإنى أطلت فيها المقامْ

لم أدر ما نجَمى ولكنه

فى النحس مذ كان - جرى واستقام

والعيش سُقْمٌ للفتى منصب

والموت يأتى بِشفاء السقَامْ

ولزم داره حوالى نصف قرن من الزمان لم يغادره إلا مرة

(١-٢) المصادر السابقة اللزوميات والفصول.

واحدة حين لجأ إليه الناس مستغيثين به، كان هذا عندما حاصرَ صالح بن مرادس أحد قواد حلب، مدينة المعرة والح فى حصارها حتى سخط أهلها وفروا إلى أبى العلاء ليكون سفيرهم إلى صالح بن مرداس، فلما ذهب إليه بقضيتهم شفيعاً لهم أجاب صالح:

قد وهبتها لك يا أبا العلاء (يقصد المدينة).

الغريب فى الأمر هذا أن أبا العلاء لم تَفُته سخريته المريرة فى هذا الموقف فصوره فى أبيات ارتجلها فى الحال أمام الشهود، وفيها يقول:

تَغيبتُ فى منزلى برهةً
ستيرَ العيوب فقيد الحَسَدْ
فلما انطوى العُمر إلا الأقل
وحان لروحى فراقُ الجَسَدْ
بعثتُ سفيراً إلى صالحٍ
وذاك من القوم رأىٌ فَسَدْ
فَيَسْمَعُ منّى سَجْعَ الحمام
وأسمعُ منه زئير الأَسَدْ
فلا يُعْجَبَنّى هذا النفاق
فكم نفّقتْ محنة ما كَسَدَ

وعايش المَوت راضياً فى رحلته حتى النهاية، وكان قد قرر الاعتصام بمبدأ الرحمة، فى عدم الزواج، حتى لايكرر جناية الآباء على الأبناء، وفى رفضه المطلق لأكل الحيوان والطير، وما يخرج عنها، من بيض ولبن، قانعاً بما يمسك رَمَقَهَ مما تُنبت الأرض، ومن الثياب ما يستره، ومن الفرِاش ما يقّربه من الأرض، حتى إنه فى مرضه الأخير، عندما وصَفوا له أن يأكل الفَرُّوج الصغير كعلاج لهِ، رفض وقال مخاطباً له:

استضعفوك فَوَصَفُوك وَذَبَحوك!!! هلا جاءوا بِشبل الأسد؟

وكرر وصيته فى أن يكتبوا على قبره:

«هذا جناه أبى علىَّ وما جنيتُ على أحد»

كان ذلك فى أوائل شهر ربيع الأول سنة ٤٤٩هـ وحين ووري التراب وقف على قبره أربعة وثمانون شاعراً يرثونه، كان فى مقدمتهم تلميذه أبو الحسن علىّ بن همام الذى قال فيما قال مخاطبا إياه. . .

إن كنتَ لم تُرق الدمــاَءَ زهــادةً

فلقد أَرَقْتَ اليوم من جَفْنى دما

هكذا مضى أبو العلاء، ولعله كان يردد فيما بينه وبين نفسه

كثيراً أيام مرضه الأخير بيته الشهير:

لاتظلموا الموتى وإن طال المدَى

إنى أخاف عليكمو أن تلتقوا!

ومن هنا نقف وقفة قصيرة فى رحلة أبى العلاء، في حياته ودنياه، وفلسفته للموت فى الحياة، وفلسفته فى الحياة قبل وبعد الموت، قبل أن نمضى معه، فى رحلته التى اصطنعها عامداً، وهو يعبر جسر الدنيا الى ضفاف الآخرة، مُصَاحِباً الأدباء، والشعراء والعلماء والمفكرين فى ساحات النعيم والجحيم، مُلقيا فى نار العذاب، من كُنّا نحسبهم من أهل الجنان، وحاشداً فى جنات النعيم من كنا نظنهم من أهل الجحيم، جزءا وفاقا لما رآه فى فكره عن أولئك وهؤلاء.. بكل شجاعة وعبقرية واقتدار.

بملاحظة[1] تراث المعرى نجد أنه كتب ثلاثة دواوين: سقط الزند، ومعظمه فى شبابه إلا القليل، والدرعيات وهو ملحق لسقط الزند، ثم اللزوميات، وهو أخطر دواوينه شأنا لأنه يمثل أدق ناحية فى فلسفته العقلية التى تؤرخ لتطور أفكاره من الشك،

(١) انظر كتابنا: الفكر الاسلامى والفلسفات المعارضة فى القديم والحديث ط ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب: الفصل السادس بأكمله حول المعرى والخيام وآثار حركة الباطنية وتياراتها فى الفكر الإسلامى والحقل الأدبى.

والحيرة، واللاإرادية، من الإيمان بالعقل، إلى عدم اليقين به، من الإيمان بالجبريّة، إلى الضراعة لله والاستسلام لمشيئته، من توكيده لإرادته فى ممارسته للموت فى الحياة، برفض الزواج ومتعة الحياة، من طعام وشراب ولباس، واعتزال للناس، من آرائه فى اختلاف المذاهب والعقائد، من رفضه للانتحار فى صورته المعروفة، ولجوئه إليه فى صورة رفض الحياة ذاتها بكل مافيها مما أراده الله للناس من متاع الحياة فى الزواج والنسل والاستمتاع بما فيها من نعم، من إصراره على أن يبقى واعياً تمام الوعى، فلا يصنع مثلاً ما صنعه الخيّام «عمر الخيام ت٥١٧هـ» من بعده حين كان يحيا ويعيش أفكاره وآراءه فيفزع منها كثيراً، ولايجد ملجأ ينسيه إلا أن تستغرقه كئوس الخمر فينسى عقله أو ووعيه لحظات أو ساعات ما يلبث بعدها الا قليلاً، ثم يعود إلى وعيه وصحوه وعقله، وفكره الثائر، فَيُغشِّيه ويخدّره بكئوس جديدة أكثر تَعتُّقاً وتأثيراً . .

أما تراث المعرى النثرى فهو رسالة الملائكة ثم رسالة الغفران، وهى الأخطر شأناً، وقد كتبها عام ٤٢٣هـ وكان فى سن الستّين. وإذا كان - كما نرى - قد صور مأساته بالنسبة لمأساة الحياة الملهاة، فى غير الغفران، فقد صورّها محتجاً ساخراً

إلى أقصى حدود السخرية، حين نَصَب نفسه، بكل اقتدار وإبداع، قاضياً فى الدار الآخرة فى رسالة الغفران، فالمعرّى فى هذه الرسالة، قد صوّر كل ما حُرم منه فى حياته فى سخرية شديدة، حين عرض لنا مشاهد اللذائذ والمتع: اللحوم والخمور والنساء مصوَّرة مشخصة، وحين عرض لنا، مشاهد الأحلام التى صنعتها سِيَاط الُعزلة والحرمان، كما صوّر جَنَّةَ السجين المكبوت، فى حركات الصيد، والغناء، والرقص، والدعابة، والصياح، والعربدة، ومشاهد الانفعالات من تعجُّب، وحنين، وإشفاق، وحَذَر، وإغراء، وقسوة، وذُعر، وغيظ، وخصام، وتنابز، وتعريض وشماتة... والذى لاشك فيه أن الرحمة التى دعا اليها هى السبب فى تصويره للعذاب والنعيم، فى صور بسيطة للغاية، لوقارناها بمشاهد وصُور «دانتى» فى الكوميديا الإلهية!

ويظهر من ذلك - كما ذكرنا- إدخاله النار أمثال بشار بن بُرد وإدخاله الجنة كثيرا من أهل الفترة (السابقة على الإسلام) أمثال النابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى[1].

إن الكلمة الكبرى التى حَسَمَ بها أبو العلاء العملاق، كَل آرائه وقضاياه، وكانت مُدخلا ومُفتتحا لفلسفته ومذهبه فى الحياة

(١) المصدر السابق.

والموت والمصير، هى جناية الوجود ذاته، تلك الجناية التى عاشتها وارتكبتها البشرية على رغمها- فى رأيه- والتى كان منها وجوده هو أيضاً، ذلك الوجود الذى جَنَى عليه «أبوه» وهو لهذا قد قرر بلا رجفة ولاتردد ألايجنى على أحد..

« هذا جناة أبى علىّ* وماجنيت على أحد».

والسؤال الذى نسأله، رغم هذه الجبرية التى يؤمن بها المعرى: هل كانت ممارسته للموت فى الحياة أمراً لاصلة له بإرادته؟ وهل كان ما أراده لنفسه من حرمان، اختياراً حقّاً؟ أم جبراً قضى عليه به؟ الواقع الذى أراه، أنه كانت للمعّرى إرادة، وإرادة صارمة، رغم أنه يرى أن ذلك كان قضاءً أيضاً ولاحيلة له فيه..

ماذا نريد أن نقول؟ نريد أن نقول: إنّ المعرّى لم يهجر الحياة، لأنه كان أعمى، ولم يتزوج لأنه كان عاجزاً عن الزواج، ولو شاء لما حّرم على نفسه طيبات ما أحلّ الله، بل لو شاء أن ينهز مع الغواة بِدَلْوِهم لفعل، فما حَالَ العمى أو الصمم أو الكساح بين أحدٍ، وما يشتهى، وفقاً لأقوى ما فى طبيعته الغريزية.. وليس كل من تربّى مثل المعرّى- فى بيت من بيوتات الدين والعلم والوجاهة، بِصادِفٍ عن الملذات والشهوات أو

بعاكف على الصوامع والمساجد، والمعابد، وليس كل عربى تمنعه أصالة العرض، أن يعاقر الخمر، ويستطيب حَيَاَة المجون، فإن امرأ القيس، وطرفة بن العبد، والأعشى وغيرهم (وحتى أبو العتاهية الزاهد) أو مُدعى الزهد والتصوف، كل أولئك وغيرهم عَرَبٌ فى الصميم من العروبة ومجُونُهُمْ أو تهالكم على الملذّات، كمجون أو تهالك غيرهم من الشعراء من أبناء الأمم الأخرى فى عهود الوثنيات وعهود الأديان السماوية على السواء، وليس كل أعمى عازفاً عن مواطن ومواقع الشبهات، فإن الشاعر «بشار بن برد» [الذى انتقم منه المعرى فأدخله فى رسالة الغفران قاع الجحيم] قد وُلد مثل المعرى، وكان أسبق وأسرع إلى الشهوات من سائر المبصرين، وليس كل ضعاف البنية مُعرضين أو بعيدين عن حظوظ الأشداء، فربما كان ضعف البنية سبباً من أسباب الإفراط والتهالك على المُتع والشهوات والملذات.

أمر آخر، لقد كان من الممكن أن يكون المعرىّ كعمر الخيام الذى تفلسف مثله وعايش كثيراً جدًّا من آرائه وأفكاره، أقول: كان من الممكن أن يلجأ المعرّى إلى الخمر، كالخيام ، ليطفئ فيها قليلاً أو كثيراً من سَوْرة لا أدريَّته أو شكوكه الطاغية أو حيرته العارمة أو قلقه العقلى الرهيب، لكن أبا العلاء هو أبو العلاء

الرافض لغير الوعى الكامل والعقل الواعى لما يقول ويرى ويسلك بكل إرادته، وعلى الرغم من ثورته على العقل فى كثير من آرائه فإنه لم يكفر به - كما نعتقد- ولم يفقد ذرةً من إيمانه بهذا العقل، ولهذا أصرّ على الصحو القاتل، فلم يُغْرقه (كالخيام) فى جرعة خمر أو «برميل» خمر، ولم يُغرقه فى استغراقات صوفية متطرفة كالحلاج مثلاً، وقد عاش المعرى قلقاً يكاد يفوق فى عنفه قَلَقَ الوجوديين الكبار[1] وكان حين يتأزم به الموقف يعلن لاادريته، لا كمذهب قائم، بل كوقفة مؤقتة، ريثما يعود إلى جميع شتات قواه الواعية، ليضرب بها فى حقل جديد من التساؤلات التى لاتنتهى، ولاتصل إلى جواب أو لاتصل إلى يقين من جواب سوى أن يُعلن أبو العلاء ضراعته لله، أو مستسلما أحياناً، استسلام المتمرد العاجز، عن فهم حكمة الله، أو مستسلماً أحياناً، استسلام المطمئنّ إلى رحمة الله، وبخاصة عندما كان يحسّ دائما بقرب رحيله إلى ساحة الله وعندما يحس بالرهبة من قدومه على ساحة الجبّار العادل (الرحيم).

(١) هذه الصورة يمكن إدراكها فى فكرة الفارق بين العقل البصير كعقل المعرى والعقل الأعمى كعقل غيره من أصحاب المذاهب الأخرى ارتابية أو غير ارتيابيه: أنظر البيركامى: أسطورة سيزيف ٣-١٠ ترجمة أنيس زكى بيروت وانظر د. عبدالغفار مكاوى: البيركامى (٥-١٠) دار المعارف.

لاشك عندى أن أبا العلاء العملاق، قد أعلن وقرّ انتحار ذاته فى هُروبه المطلق من الحياة، وسلوكه الزاهد لسائر متع الحياة، لكن يظهر أنه ساورته فكرة التخلص من الحياة بالانتحار السريع الحاسم.. فهو حين يُعلن فى وضوح:

مهجـتى ضـدٌّ يحـاربنى

أنا منّى كيف أحـترس؟

يعود بعد انفجار ثورته وغضبَه على نفسه، ليفكر لحظات يائسة أحياناً، فى التخلص منها بالانتحار السريع، لكنه يعود بعد أناة، أو حُبَّ كامنٍ للحياة فيقول فيما يقول: «قد كدتُ ألْحقُ برَهْط العدم[1] من غير ما أسف ولاندم.. ولكنما أرهب قُدومى على الجبار» ما الحل إذن؟ الحل هو التفكير، فيما فكر فيه وعاشه رفيقُه فى فلسفته عمر الخيام فكراً ووجداناً وسلوكاً، الحل هو أن يلجأ إلى الخمر لتنسيه أحيانا سَوَرَةَ ثَوْرته أو لتطفى كثيراً من تمرّده.

إن شَيْخَنَا العقاد[1] يرى أنه لايُستبعد أن يكون المعرىّ قد جرّب أن يَتَذَوق بعض الخمر فى عُزلته، وقد يكون شربها أو

(١) عباس محمود العقاد: رجعة أبى العلاء (٣٠/ ٣٤) وانظر المازنى إبراهيم عبدالقادر المازنى: حصاد الهشيم وخيوط العنكبوت من خلال حديثه عن ابن الرومى والمتنبى.

شرب قليلاً منها، فى بعض الأديرة، التى اعترف بأنه كان يذهب إليها أحيانا فى بعض دراساته مع العلماء من الرهبان.. بديل قوله(المعرى):

فلا تَشْـربَنْها ما حييتَ وإنْ تَمِـلْ

إلى الغـىِّ فاشــربْها بغير نديـم

ويمكن أن نرى رغبة كامنة فى أعماق نفس أبى العلاء، فى ظهور من يستطيع (فقط) من الأنبياء أن يُفتى بتحليها، إنها أمنية ولاشك جالت فى نفس المعرى الذى يقول فى حالة شك، وفى حالة إصرارٍ معا على عقله:

تمنيتُ أنّ الخمر حلّت لنشــوةٍ

تُجَهلُنِي.. كيف اطمأنّتْ بَى الحال!

أيأتى نبى يجعل الخمــر طلقةً

فتحمل شيئاً من همــومى وأحـزانى

لكنه يعود سريعا، ، فيعلن حرصه وتمسكه بوعى عقله الذى ليس هناك أسمى ولا أفضل منه، فيقول فيما يقول فى نفس القصيدة:

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها

بالعقل أفضــل أنصــارى وأعـوانى

وإذن.. فلْيضربْ أبو العلاء المعرّى بعقله الواعى كل شئ لا يقبله ولا يعقله فى نفسه أو فيما حوله أو فيمن حوله من قريب أو بعيد، ورغم أنه قد عزل نفسه تماماً، فإنه بعقله لم ينعزل عن الحياة والأحياء، ونظر إلى عصره وحكام عصره وعلماء عصره وساسة عصره، فلم ير إلا الضعف والجهل والظلم والفساد والضياع.

إن العـراق وإن الشـام من زَمَـنِ
صفـران.. ما بهما للملك سلطانُ
سـاسَ الأنامَ شـياطينٌ مسـلطـة
فى كل مصرٍ من الوالـين شيطانُ

إلى أين إذن؟ إلى الحجاز؟ إلى الشام؟ إلى اليمن؟

أما الحجـاز فما يُرجى المقـام بـه
لأنه بالحـرار الخمـس مُحْتَجَـزُ
والشام فيه وقود الحـرب مشتعل
يُشابه القـوم شُـدَّتْ مِنْهُمُو الحجـز

إن الحجاز عن الخيرات محتجـــز

وما تهامـــة إلا معـــدن التُّهـــمِ

والشام شؤم وليس اليمن فى يَمَنٍ

«وَيَثربُ» الآن تَثْريب على الفُهُمِ

ثم ماذا يا أبا العلاء؟ لاخير على الإطلاق، فالأمراء يَسُوسون الأمور بغير عقل، وقد ظلموا الرعية بينما هم جاءوا لخدمتها ورعايتها:

مُلَّ المقام.. فكم أعاشر أمـــةً

أمـرت بغير صلاحها أمراؤها!

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها

وَعَدَوْا مَصَالحها وهم أجراؤها

لكن ما حقيقة هؤلاء الحكام والولاة يا أبا العلاء؟

يَسُوسُون الأمــور بغـير عقــل

فينفـذ رأيُهـم ويقــال سَاسَـهْ

فَـأُفَّ من الحـــيـاةِ وأفِّ مـنَّى

ومــن زمـن رئاستُه خَسَاســه[1]

ومن هؤلاء المسئولين من الرؤساء أو العلماء كثير من المنافقين الضالين المضللين الذين يقولون مالايفعلون.

طلب الخسائس، وارتقى فى منبرٍ

يصف الحســابَ لأمــةٍ ليُهولَهاَ

ويكــون غــير مصــدّق بقيامةٍ

أَمْسَى يُمثّلُ فى النفوس ذهولها[2]

ويتمرد عقل المعرى فيقول فى فترة من أعنف ثوراته:

(١، ٢) المعرى: اللزوميات١/ ٢٥٢/ ٤٢٦/ ٤٧٦، ج٢/ ١٧٧- ١٨٠/ ٢٥٢ وانظر الفصول والغايات ٥١/ ٢٠ ما أورده ياقوت الحموى: معجم الأدباء عن المعرى ١/ ١٦٢/ ٢١٦.

إذا قلتُ المحـــال رفعتُ صـــوتى

وإن قلتُ اليقين أطَلَتُ هَمْسِي[1]

ثم يكشف عما وراء الهمس فيقول فيما يقول:[2]

هَفَت الحنيفةُ والنصارى ما اهتَدَتْ

ويهـودُ ضلّتْ والمجـوسُ مضلّلة

اثنان أهلُ الأرضِ ذو دين بلا عقلٍ

وآخـــــر ديّـــن لا عـقـــل لـــه

وقد روى ياقوت الحموى فى معجم الأدباء، وابن الجوزى فى المنتظم أبياتاً ساخطة نسبها للمعرى، لكننا لم نجدها فى دواوينه، ومنها ما رواه ياقوت[3] عنه فى حكمه على أصالة الشر والنقيصة والخطيئة فى الخلقة البشرية:

إذا ما ذكـــرنا آدمـــاً وفعـاله

وتزويـــج بنتيـــه لأبنيـــه فى الدُّنـاَ

علمنا بأن الخلق من أصل ريبةٍ

وأن جميع الناس من عُنْصُرِ الزِّنَا!

(١، ٢) المعرى: اللزوميات١/ ٢٥٢/ ٤٢٦/ ٤٧٦، ج٢/ ١٧٧- ١٨٠/ ٢٥٢ وانظر الفصول والغايات ٥١/ ٢٠ ما أورده ياقوت الحموى: معجم الأدباء عن المعرى ١/ ١٦٢/ ٢١٦.

(٣) المصدر السابقة لياقوت وانظر ابن الجوزى: المنتظم ٧/ ١٥٦- ١٦٠.

كما روى ابن الجوزى[1] هذه الأبيات منسوبة إلى المعرى وهو يخاطب ربّه معتذرا عن أسباب زندقته!

إذا كان لايحظى برزقــك عـاقـل

وترزق مجــنوناً وتـرزق أحَـمقْـاً

فلاذنب يارب الســماء على أمرئ

رأى منك ما لا يشــتهى فَتَزَنْدقاً

وينطلق أبو العلاء فيؤكد إيمانه بالجبرية واضحةً فى كل شئ:

ما باختيارىَ ميلادى ولاهَرمى

ولاحياتى فهل لى بعدُ تخيير[2]؟

وقد التقى معه عُمر الخيام من بعده فى نفس المعنى على نفس الصراط:

واضطراًرا قد جئت هذِى الديارا

وسأضطـرُ للرحـيـل اضطــرارا[3]

بل إن الخيام يؤكد هذه الجبرية فى أن علم الله القديم بأنه (الخيام) سيشرب الخمر، قضاء إلهى وإرادة إلهية:

(١، ٢) المصدر السابق لابن الجوزى.

(٣) اللزوميات ١/ ٢٨٦، ٢/ ٢٢ وانظر رباعيات الخيام.

يعلم الله بشربى هذه الصهباء قِدْماَ فإذا لم أحْسُها لم يكُ علمُ الله علْما!

وإذا كان المعرى يقول فى نفس المقام الجبرى[1].

ونحن فى عالم صيغتْ أوائله على الفساد فَغَىٌّ قولنا فَسَدوا فان الخيام[2] يؤكد بعده نفس الرأى فى قوله:

وَيْلتى مذ جَلَبُوا فى قالب الخِلقة طِينى

كم أثاروا الشر فى هذا التراب المستكين

ليسَ فى مقدرتى أنْ أغتدى أفضل منى

هكذا من مصهر التكوين كانوا أفرغونى

وإذا قال المعرى ودعا إلى ستر الأسرار خوف المهالك:

أصْدُق إلى أن تظنّ الصدق مِهْلكةً

وبعد ذلك.. فاقعُدْ كاذباً وقمِ

إذا قلتُ المحالَ رفعتُ صوتى

وإن قلت اليقين أطلتُ هَمسْىِ

(١، ٢) المصدر السابقة للمعرى والخيام.

فإن الخيام يلحق بركبه قائلاً على نفس الصراط:

فُصِّلتْ أسرار دنياكم لدينا فى الدفاترْ
قَد وَعَيْناهاَ . . ففى النشر وَبَالٌ ومخاطْر
لم نجد فى الناس من يعقل من أهل البصائرْ
فغداً يعجزنا إظهار ما تخفى الضمائر
رُبَّ سرٍّ لستُ أستطيعُ له فى الخلق فَضْحاَ
فاستمع موجز قولى- لاتَسَلْنِي عنه شَرْحاَ
آه من سِّرطواه القلب لايَقْبَلُ بَوْحاَ

وحين يدعو أبو العلاء البشر جميعاً إلى الرحمة حتى بالتراب الذى نمشى عليه، لأنه تراب أجساد أجدادنا فى دورة لاتنتهى، حين يقول المعرى:

سِرْ إن استطعت فى الهواء رويداً
لا اختيالاً على رفات العبادِ
خفَّف الوطءَ ما أظـن أديـم الـ
أرض إلا من هذه الأجساد[1]

(١) المصادر السابقة للمعرى والخيام.

فإن الخيام يشدو معه فى أسًى وجزع وإشفاق حين يقول:

فأمْشِ الهوينى إن هــذا الثرى

من أعــين ساحــرة الإحورار![1]

وإذا تحدث المعرى عن النفع المادى من تراب أجساد الأجداد، الذى يمكن أن يصبح ويصير أساساً للجدران والحوائط، بل إن مَفَاصِل البانى التى صارت تراباً، سوف تدخل فى يوم من الأيام طلاء للسقيفة والجدار.. إذا تحدث المعرى عن ذلك فقال:

وكم من رجال جُسُومهم عفـر

تُبْنَى بهم أو عليهمُو الُجــدُر![2]

لعَــل مَفَاصِـلَ البنــاء تُضْـحِي

طــلاء للســقيفة والجــــدار!

فإن الخيام يلحق به فيقول فى صورة شعرية درامية نسمع منها حواراً فى معمل الخزَفَ، صادراً عن الأوانى والكئوس العذراء، التى تئن عَبْرَ الطين المجبول المحروق...

(١، ٢) المصادر السابقة للمعرى والخيام.

أمس أبصـرت جارَنَاَ الخزّافا

يَجْبَلُ الطـين كيف شاء اعتسافا

وكـأنى سمعتُ بين يـديـه

صـــوت مظلومـة تَشكَّىَ لـديهِ

آه رفقاً فأنت طـين ومـاءْ

أيها المَرءُ . . لاتَسُمْنِي العَذابا[1]

وإذا كانت الحياة فى رأى المعرىّ أشبه بُجثَّةٍ تنبح حولها الكلاب، النّوابح، وأن الآكلين منها هم الخاسرون، والزاهدون الهاربون هم الرابحون، فما الداعى إلى الطمع فُى دار كلها شتات، كل عامر فيها إلى خراب، وكل آت إلى إياب وكل حى إلى ممات، كما يقول معه على نفس الإيقاع والنهج عمر الخيام.

يقول المعرى:

أصـاحِ هى الدنيا تشـابـه ميتـةً

ونحـنُ حواليها الكـلاب النوابحُ

---

(١) المصادر السابقة للمعرى والخيام.

فمن ظلّ منها آكـلاً فهو خاســـر

ومن عاــد منها ساغباً فهو رابحُ

فما تـريـدُ بـدارٍ لســتَ مالكهـا

تقيم فيها قليـلاً ثـم تنـصــرف؟

ويقول الخيام:

كالعصافير وقعنا فى أحابيل الزمان

مُجْهَدى القلب حيارى مالنا فيها يدان!

حَوْلَنَاَ دائرة لاباَ أو سَطْح لها

لم نجئ فيها ولم نذهبْ وفاقاً للأمانى.

إن يكن حقا مماتى فَأَجِبْنِي ما حياتى؟

ولم الأطماع فى دار الرزايا والشتات؟

منزل لايترك النازلُ فيه وادعاً

لِمَ يَرضْى فَيه أن يَبْغِي.. ويهتم لآت؟

وإذا كان المعرى قد أعلن ونفذ تطليقه للحياة بكل متعها وأكد فى رفضه للزواج أنه كان خيراً لنا ألا نكون وألا يكون الوجود حين قال:

خير لآدم والخلق الذى خرجوا

من ظهره أن يكونوا قبلما خُلقوا

هـــذا جـــناه أبـــى عـــلـــىّ

ومـــا جـــــنيتُ عـلـى أحـــد

فقد لحق بركبه رفيقه الخيام فقال فيما قال:

إنما الراحة فى الدنيا ولذّاتُ الصفاءْ

خُلقتْ للمطلق الضارب فى كل فضاءْ

فإذا ما أصبح فرد مستريح البال زوجاً

فَلَقَدْ بّدل من راحته كل الشقاء[1]

وإذا كان أبو العلاء قد تجّرأ فقال فى إحدى شطحاته الجبرية العقلية:

---

(١) المصادر السابقة للمعرى والخيام.

إن كان مَن فعل الكبائرِ مُجْبَراً فَعِقـابُهُ ظلـم على مايَفْعَلُ

فإن الخيام يمضى فى ركبه على طريقته ويقول:

عندما صَوَرَنا البارئ من هذا الترابْ

كان يدرى ما سنأتى من أثامٍ وصوابْ

إننا لم نَجِنْ ذنباً ليس من تقديرِهِ

فلم التعذيبُ فى النار إذنْ يوم الحَسَابَ[1] ؟

وعندما يتلمس المعرى طريق النور فيستسلم ضارعاً طالباً عفو الله فإنه يقول عن ثقةٍ عظمى برحمة الله له، حتى ولو أدخله النار وأبقاه فيها ألف سنة!.

إنْ أدخل النار. فلي خـالقٌ يحملُ عنى مُثقـلات العَـذَابْ

يَقْـدِرُ أن يُدخلنـى جنّـةً فيها تَـرَامَى بالمياه العِـذابْ

فلْيَفْعَل الدهـر ما يهمّ بـه إن ظُنـونـى بخالقـى حَسَـنَه

لاتـيـأسُ النفـس من تَفَضّلِه ولو أقامت فى النار ألفَ سَنَهْ[2]

(١، ٢) المصادر السابقة للمعرى والخيام.

ونقول إذا كان أبو العلاء يمضى فى ضراعته هادئاً مُستكيناً وَقُوراً كعادته، فإن الخيام يقتحم ساحة العفو الإلهى فى حوار مع الله سبحانه، فى صورة أشبه بالاحتجاج، وفى تفاؤلية لاتغيب عن أمثال الخيام حين يقول:

ربَّ قل لى مَنْ هو المعصوم من إثم وعيب؟

رب كيف اسْطَاعَ أن يحيا امرؤ من غير ذَنب؟

ليس جُوداً منك أن تُعطينى عن حَسَنَاتِي

إنما جُودك أن تَعْفُو عن سيئاتى

إننى يارب عبد مذنب أين رضاؤك؟

وفؤادى كالدياجى ظلم أين ضياؤك؟

وإذا أعطيتنا الجنة بالطاعة منَّا

كان هذا منكَ بَيْعاً. . أين يارب عطاؤك[1]؟

فإذا مضينا مع أبى العلاء فى رحلته إلى الدار الآخرة منذ بدايات حياته الأولى حتى اصطناعه لرحلته فى الدار الآخرة وهو

(١) المصادر السابقة للمعرى والخيام.

يقف قاضياً ممسكاً بميزان العدالة، فى رسالة الغفران، حتى صعوده إلى السماء فى صراعات لاتبغى إلا رحمة الله وعفوه ورضوانه ، فإننا نضع أمامنا وأمام التاريخ - كما أراد أبو العلاء- قوله الخالد - إزاء مَنْ ظلمه أو كفره أو نافَقَه:

لاتظلموا الموتى وإن طـال المـدى
إنى أخـافُ عليكمو أنْ تلتقـوا!

ورسالة الغفران[1] التى تتضمن رحلته العجيبة التى اصطنعها بعبقريته الفذة، لم يكن المعروف عنها، حتى القرن الثالث عشر الهجرى، يتجاوز كلمات ذكرها مؤرخوها فى الترجمة عنه، وفى القرن التاسع عشر الميلادى بدأ اسم رسالة الغفران يُدوِّى فى الأوساط الأدبية والفكرية، فى العالم الأوربى، مقترنا بالكوميديا الإلهية لدانتى، على سبيل تشابه رحلتيهما إلى الدار الآخرة، وعلى سبيل أن دانتى، كما يقول المستشرق الأسبانى آسين بَلاَسيوس A.Placios قد عايشها وتأثر بها بالإضافة إلى أصول إسلامية أخرى لعله يقصد بها أحداث ليلة الإسراء والمعراج، التى رَوَتها السير المختلفة وذكرها بلاسيوس على أنها أصول إسلامية أخرى.

(١) د. عائشة عبد الرحمن: رسالة الغفران ط٦ ٧٨-١٢٦ المقدمة ـ القاهرة دار المعارف ١٩٧٧م.

ويمكن القول إن أول نشرة لرسالة الغفران جاءت عن طريق المستشرق نيكلسون عام ١٨٩٩م[١] وعام ١٩٠٢م، وهى التى اعتمد عليها بلاسيوس في دراسته لها، وقام بترجمة فصول منها إلى الإسبانية، مقارناً بينها وبين كوميديا دانتى الإلهية، وجاء المستشرق الايطالى: تشيروللى، فقدم كتاباً عن المعراج ومسألة المنابع العربية الأسبانية للكوميديا الإلهية لدانتى، مؤيدا نظرية بلاسيوس، وكان ذلك فى منتصف القرن العشرين.

أما فى العالم العربى فلم يتحقق لرسالة الغفران وجودها الحقيقى الأصيل إلا مع الجهد المحمود الذى قامت به الأستاذة الدكتورة عائشة عبدالرحمن فى نشرها عن أدق نسخة خطية كانت قائمة فى تركيا، فى مكتبة كوبر يللى زاده، باستانبول[٢].

والذى لاشك فيه أن أبا العلاء قد أملى رسالة الغفران، وهو فى الستين من عمره[٣]، وقد أرهفت العزلة حسه ووجدانه وأوغل فى النفاذ إلى أعماق نفسه، فانكشف له المطوىّ من همومه وجراحه، لطول ما أصغى إلى نبض وجدانه، وتمزقتّ حُجُب الوهم والمداراة، فإذا راحة اليأس قد عزت عليه، بعد أن عزتْ عليه قبلها نعمة الأمل! وإذا الانصراف النفسى عن الدنيا بعيد المنال.

---

(١) المجلة الآسيوية الملكية J.R.A.S.

(٢) نشر النص عام ١٩٥٠ محققا تحقيقا وافيا وطبع أكثر من خمس طبعات حتى الآن.

(٣) المصدر السابق للدكتورة عائشة عبدالرحمن.

وقد سجلها ردّا على رسالة ابن القارح الذى أراد أن يعقد بينه وبين شيخ المعرّة-صداقة فى خريف العمر الذى كان يجمعهما على البعد مابين «حلب» ومعرة النعمان.

ويبدأ القسم الأول من رحلة المعرى، بِنَبَأٍ عن وصول رسالة ابن القارح المفتتحة بحمد الله وتمجيده، ثم الانطلاق إلى الدار الآخرة.

هكذا يمضى أبو العلاء بصاحبه ابن القارح فى ساحة العالم الآخر، صاعداً فى معراج من نور إلى عالى السموات، وقد غرس له بفضل الكلم الطيب شجرة فى الجنة، يجلس الشيخ فى ظلة مَعَ مَنْ اصطفى من نَدَامى الفردوس، وكلهم من علماء اللغة ورواة الشعر.

هكذا يمضى أبو العلاء بصاحبه فى رحلته الساحرة، وهو يعرض لنا مسارح الجنة حيث يغترف أصحابها الشراب من أنهار خمر الجنة وعَسَلها المصفى، فى كئوس من فضة وذهب، وحيث يرون فيها من كانوا يظنُّونه فى النار، كالأعشى وعبيد بن الأبرص، وزهير بن أبى سلمى، ويرون من أسراب إِوَزّ الجنة العجب العجاب، حين يَنْتَفِيْضنَ على الأمواج، فَيصرن كواعب حِساناً بأيديهن المزاهر وآلات الطرب، حيث يدور الحوار والغناء

وحيث تقام المآدب التى ينعم بأطعمتها وأشربتها كل من فى الجنة من الشعراء والأدباء، ومن فيها من مشاهير المغنين والمغنيات، أمثال الغريض ومعبد، وابن مسجح، وابن سريْجْ، ودنانير وعنان، وحيث يشهدون من بدائع الجنة أشجار الحور، التى ما إنْ تكُسَرُ إحدى ثمارها حتى تنطلق منها حورية ليس لجمالها مثال.

وتمضى الرحلة وجهتها الأخرى، إلى النار والجحيم، حيث يشهد الشيخ وصاحبه، إبليس اللعين وغير إبليس اللعين، أمثال بشار بن برد وغيره من الشعراء أمثال امرئ القيس وعنترة، وعلقمة وعمرو بن كلثوم، وتأبط شراً، حتى إذا قضى مأربه من مشاهدة الجحيم، عاد إلى الجنة، ليلتقى بآدم أبى البشر، ويحاوره ويستمع مع صاحبه إليه، ثم ما يلبث أن يمر بروضة الحيّات، ويسمع من إحداها العجب من الروايات، وعلم القراءات وفقه قراءة القرآن، إلى أن يصل بصاحبه إلى محلّه المشيد فى دار الخلود.

وهنا ينتهى النصف الأول الهام من رحلة المعرى، ويبدأ النصف الثانى الذى لانجد فيه إلا ردوداً على تساؤلات ابن القارح

فقرةً فَقْرةً، فى قضايا نقدية وتاريخية مما شغل أئمة اللغة العربية، وفى قضايا مذهبية عن الزنادقة، والفرق الكلاميّة الكبرى كالمعتزلة والأشاعرة والشيعة وغيرهم.

ومسرح الأحداث هو الجنة والمحشر والجحيم. وابن القارح صديق أبى العلاء هو البطل الذى وصل به أبو العلاء بين هذه الأبعاد والساحات الثلاث من بداية الرحلة إلى نهايتها إن كانت لها نهاية، والمشاهد تعتمد على الحركة والحوار وكثيراً ما تصاحبها موسيقى تصويرية عن الشعر المعبِّر عن المشهد المشخَّص أو الممّهد لهَ، ومن مناخ الصور الدرامية المنبثقة من المشاهد المتلاحقة.

ونستطيع أن نقول بكل يقين: إن أبا العلاء الذى عزل نفسه عن الحياة الدنيا فى حياته البشرية والإنسانية وجد ذاته وأكدها فى إبداعاته، وفيما قدمه فى رحلته إلى الدار الآخرة، كما أكد أنه الأعمق بصيرة ووعياً، وأنه ذلك البصير الذى خبر الدنيا والناس والحياة، كما لم يخبرها الغارقون فى دوّاماتها إلى مافوق الأذقان والعيون، المعتزل الحّر بإرادته الحُرة، الذى أكد عظمة رسالة الحرية له، وللبشرية على مر العصور، وهو يمضى فى رحلته عملاقاً رافضاً غاضباً ثائراً على كل ألوان وأنماط الكذب والمراء والتدليس

والنفاق، غير مؤمن إلا بالله والحرية والرحمة والسلام. . فلندخل ساحة أبى العلاء فى رحلته الخالدة.

المعرى: بسم الله الرحمن الرحيم. . . والحمد لله رب العالمين. . .

اللهم يَسِّرْ وأعِنْ. . .

. . .وقد وصلت الرسالة التى بَحْرهُا بالحكم مَسْحُور، وَمَنّ قَرَأهَا مأجور،وفى تلك السطور كلام كثير، كُلُّهُ عن البارئ أثير، فقد غُرس لمولاى الشيخ الجليل-إن شاء الله- بذلك الثناء شجر فى الجنة لذيذ اجتناء.

وتجرى فى أصول الشجر أنهار، والكوثر يُمدها فى كل أوان مَنْ شربَ منها الجَرْعةَ فلا مَوْت، أنهار من عَسَلٍ مُصَفّى،مّما كَسَبَتْهُ النَحلُ الغادية إلى الأزهار.

ولكن قال له العزيز القادر: كُنْ فكَانْ، وبكَرَمه أعطى الامكانْ ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿١٥﴾**﴾[1].

(١) سورة محمد الآية ١٥.

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]. صدق الله العظيم

فى رحاب الجنة

الراوية:

.. ثم إنه- أدام الله تمكينَه- يَخطِرُ له حديثُ شئ كان يُسّمى النُزهة، فى الدار الفانية، فيركب نجيباً من نُجب الجنة خُلقِ من ياقوتٍ ودُرٍّ، فى سَجْسجٍ بَعُدَ عن الحَرّ والقَرّ.. ويسير فى الجنة على غير منهج، ومعه شئ من طعام الخلود، ذُخِرَ لوالدِ سَعِدَ أو مولود!!.

ميمون بن قيس:

أَلَمْ تَغْتَمضْ عيناكَ ليلة، أَرْمَدَا

وعادَكَ ما عاد السليم المسُهَّدا؟!!

الشيخ:

هذا شعر لازلت أذكره.. من الهاتف بهذا الشعر؟

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٣ و ٢٤.

ميمون :

ميمون بن قيس.

الشيخ:

ميمون بن قيس بن جندل فى الجنة؟ هذا عجيب!!

ميمون :

وفيم العجب يا سيدى؟ اسمعْ قصتى وسوف ينتهى عجبك إلى إعجاب..

الشيخ:

قل لى بحق مَنْ شفع لك فكانت شفاعته هجرةً من النار إلى الجنة.

ميمون:

سَحَبَتْنى الزبانية الى سَقَرَ، فرأيتُ رَجُلاً فى عَرَصات القيامة، يتلألأ وَجْهُهُ تلألُؤَ القمر والناس يهتفون به من كل رُكن...

يامحمد يامحمد، الشفاعة، الشفاعة، وصرخت ضارعاً وأنا فى أيدى الزبانية: أغِثْنى يامحمد أغِثنى فإن لى بك حُرْمة!!

الشيخ :

وماذا حدث؟

ميمون:

تَرَفَّق بى محمد ﷺ حين سمع ضراعتى، فبعث إلى بعلىٍّ ابن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه، وأنا أُجَرُّ كى أُلقى فى الدرْك الأسفل من النار، فَزَجرهم عنّى فتركونى وابتعدوا، وتقدم علىّ رضى الله عنه وسألنى:

ما حُرْمَتُك فقلت أنا القائل:

ألا أيهــذا السَّـــائلِى أيَنَ يَمّمتْ

فإنَّ لها فى أهـل يثـرب مَـوعِــدَا

فآليتُ لا أرثى لها من كــلالةٍ

ولا من حفًى حتى تُلاقى محمدا!

علىّ:

أهذه قصيدتك التى كنت تنوى فى حياتك الدنيا أن تلقيها أمام النبى محمد، فَمَنَعْتكَ قريش واعتقلتك وَصَدَّتْكَ عن لقاء الرسول؟

ميمون:

نعم سيدى قصيدتى الداليّة..

علىّ:

قل منها شيئاً..

ميمون:

مَتَى ما تُناخى عند باب ابن هاشمٍ

تُراحِي وَتَلْقَىْ من فواضِلِه نَدَى!!!

إذا أنت لم تَرْحَلْ بـزادٍ من التُّقى

وأبصرت بعد الموت من قد تَزَوّدا

ندمـتَ على أنْ لاتكـونَ كمثـله

وأنك لم تُرصِدْ لما كـان أَرْصَـدَا

نـبى يـرى ما لا تَـرَوْن وذكـرُه

أغـارَ لَعَمْرى فى البـلاد وأَنْجَدَا

عبور الشيخ وديان الجنة

وينظر الشيخ فى تطوافه وديان الجنان وشعابها، فيرى قصرين مُنيفين، فيقول فى نفسه فيما يقول.

الشيخ: لأَبْلُغَنَّ هذين القصرين فأسأل لمن هما.. لمن هذان القصران يافتى؟

الفتى الحارس: نعم سيدى الشيخ..

الشيخ: لمن هذا القصر يافتى؟

الحارس: أو ما تقرأ ياسيدى ما هو مكتوب على بابه؟

الشيخ: نعم نعم هذا قصر زهير بن أبى سُلْمىَ المُزنىّ..

الشيخ: والقصر الآخر؟ يافتى؟

الحارس: هذا قصرُ عَبِيد بن الأبرص الأَسدِىّ...

الشيخ.. فى دهشة:

رَبَّنا وَسِعْتَ كلَّ شئ رحمةً وعلماً

تُعِزُّ من تشاءُ وتُذلُ من تشاءُ

سألتمس لقاءهما . . هذان ماتا فى الجاهلية

ياولدى . . ، . . فكيف دخلا الجنة؟

الحارس:

تفضل سيدى وستعرف منهما كل شئ . .

الشيخ . . مندهشاً من شباب وجمال زهير:

عجباً . . كأنك زهرة نديَّة

ما هذا الشباب وهذه الروعة؟ كأنك لم تقل:

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يَعِشْ

ثمانين حَـوْلاً لا أبَاَلَـكَ يَسْـأمِ

قل لى بمَ غُفِرَ لك وقد كنتَ فى زمان الفترة؟

زهير:

الحق أقول لك كانت نفسى من الباطل نَفُوراَ، وكنتُ مؤمناً بالله العظيم، ورأيت فيما يرى النائم، حَبْلاً نازلاً من السماء قيل: مَنْ تَعلّق به من سكان الأرض سلم وغنم فعلمت أنه مَنْ أمْرِ الله، فأوصيتُ بنَّى، وقلت لهم عند الموت: إن قام قائم، يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه . . نعم أطيعوه . .

الشيخ:

جميل ثم ماذا؟

زهير:

وقلتُ لهم: لو أدركتُ محمّدا، لكنتُ أول المؤمنين وقلت فى قصيدتى الميمّية:

ومهما تكن عند أمرئ من خليقة

وإن خاَلها تَخْفىَ على الناس تُعْلمِ

فلا تكتُمَنَّ الله ما فى نفوسكم

ليَخْفى ومهما يُكتَم الله يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فيوضعْ فى كتابٍ فَيُدخرْ

ليوم حسابٍ أو يعجل فَيُنتقم

الشيخ.. ينتقل إلى قصر عبيد بن الأبرصّ:

السلام عليك يا أخا بنى أسد..

عَبيد:

وعليك السلام.. إن أهل الجنة أذكياء لايخالطهم الأغبياء.

الشيخ: .. وهو يضحك

لعلك فهمت ما أريد..

عبيد:

نعم إنك تريد أن تسألنى بم غُفِر لى أنا الآخر؟

الشيخ:

نعم وإن فى ذلك لعَجباً وأى عجب!!!

عبيد:

لك أن تعجب، وربما تعجب أكثر، حين تعلم أنى دخلتُ الهاوية وكنت أردد كثيراً أيام الحياة الدنيا:

مَنْ يسـألِ النـاسَ يَحْـرمُوه

وسـائـل الله لايخـيـبُ

الشيخ:

وشَفَعَ لك هذا البيت؟

عبيد:

لقد سار هذا البيت فى آفاق البلاد، فلم يزل يُنشَدُ ويُنشد فى كل مكان وزمان، ويُخفف عنى العذاب حتى تحررت من القيود والأصفار..

ثم انتهى بى الأمر إلى أن شملتنى رحمة الله وإن ربنا لغفور رحيم..

***

ويمر سرب من أوز الجنة، فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة، ويقف وقوف من ينتظر الأمر.. ومن شأن طير الجنة أن يتكلم فيقول الشيخ ما شأنكن فَيَقُلن، أُلْهِمْنَا أن نهبط فى هذه الروضة فنغنى لها، ونُغنى لمن فيها ولمن يطوف.. فيقول الشيخ: على بركة الله القدير، فَيَنْتَفِضنَ فَيَصِرْن جوارى كَواعبَ، يَرفُلن فى وشى الجنة، ويُغنين ماشاء لهنّ الغناء.

***

ويبدو للشيخ أن يطلع إلى أهل النار، فينظر إلى ماهم فيه، ليَعظُم شكرُه على النّعم، فيركب بعض دواب الجنة ويسير، فإذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة.. وتدور أمور وأمور..

انتقال مع الشيخ إلى جنة العفاريت

الشيخ:

ما هذه ياعبدالله؟

الملاك:

هذه جنة العفاريت ياسيدى..

الشيخ:

جنة العفاريت؟

الملاك:

نعم، وهم من الذين ذكروا فى سورة الجن، وسورة الأحقاف آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهم عدد كثير..

الشيخ: هل تصحبنى إلى ساحتهم.. فلن أخْلُو لديهم من أعجوبة.

الملاك.. فى رقة:

رهن إشارتك ياسيدى هيا بنا..

فى جنة العفاريت المؤمنين

الشيخ من الجن:

ماجاء بك يا إنسى؟ إنكَ بخير لَعَسِىٌّ!!!

الشيخ:

سمعت أنكم جن مؤمنون فجئت ألتمس عندكم أخباركم وما لعله لديكم من أشعار المَرَدَةِ!!

شيخ الجان:

لقد أَصَبْت.. فَسَلْ عما بدا لك.

الشيخ القارح:

ما اسمك؟

شيخ الجان:

الخيتعور!! أحدُ بَنِي الشَّيْصَبَان. ولسنا من وَلَد إبليس، ولكنَنا من الجنِّ الذين كانوا يسكنون الأرض قبل وَلَد آدم عليه السلام.

الشيخ:

عظيم.. أخبرنى إذنْ عن أشعار الجن ، فقد جمع منها فى عالمنا الدنيوى، أبو عبدالله المرزبانى قطعة صالحة رواها ورَوَيناها..

شيخ الجان: ..يضحك:

هذا هذيان لا مُعْتَمَدَ عليه.. وهل يعرف البشر من شعرنا إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض؟

الشيخ ابن القارح:

هكذا؟

شيخ الجان:

إن عندنا آلاف الأوزان التى ما سمع بها البشر من الإنس.

الشيخ ابن القارح:

وما كَنْيَتُكَ حتى أناديك؟

شيخ الجان:

أبو هَدْرَشْ.. أولدتُ من الأولاد قبائل، بعضهم فى النار، وبعضهم فى الجنان..

الشيخ:

هل تُسمعنى شيئا من شعركم الرائع؟

شيخ الجان:

حَمِدْتُ مَنْ حَطَّ أوزارى وَمَزقها

عنّى فأصبح ذَنْبِي الآنَ مغفـــــوراً

وكنتُ آلفُ من أتْــرابِ قُرطــبةٍ

خَــودًا وبالصين أخرى بِنْتَ يَغْبُورَا

أَزُورُ تلك وهــذى غـيرَ مُكْتَرِثٍ

فى ليلةٍ قبل أن أستوضح النُّورا

ولا أمــرُّ بَوحْشىٍّ ولابَشَــرٍ * إلاّ وغـادرتُه وَلْهانَ مَذْعورا

وقد عَرَضْتُ لموسى فى تَفَــرُّدِهِ

بالشَّاءِ ينتج عُمْروُســاً وفُــرْفُورَا

لم أُخلِهِ من حديثٍ مّا وَوَسْوَسةٍ

إذ دَكَّ رَبُّكَ فى تكليمه الطُّــورا

وطرتُ فى زمـن الطــوفان مُعْتليا

فى الجوِّ حتى رأيت الماء مَحسْورا

وتارةً أنا صِلٌّ فى نَكارَتِهِ * وربمّا أبصرتْنى العينُ عصفورا

تَلُوحُ لى الأنس عُوراً أو ذَوِى حَوَلٍ

ولم تكــن قَطُّ لا حُولاً ولا عُوراَ

ثم اتعَّظْتُ وصارت تَوْبَنَى مثلاً

مِنْ بعد ماعشتُ بالعصيان مشهوراً

حتى إذا انفضّـت الدنيا ونـودي

إسـرافيلُ وَيْحَكَ هلا تَنْفُخُ الصُّورا

أماتنى الله شيئاً ثم أيقظنى * لِمَبْعَثِي فَرُزِقْتُ الخُلد مَبْرورا

الشيخ ابن القارح:

لله دَرُّكَ يا أبا هَدْرشْ

لله دَرُّكَ يا أبا هَدْرشْ

انتقال إلى النار

ويمضى الركب فيرى فى طرف الجنة، الخنساء تشهد أخاها صَخْراً، والنار تضطرم فى رأسه، كما يرى الحُطَيئَةَ العَبسْىِّ فى كوخ حقير بأقصى أقاصى الجنة، فإذا انطلق الركب إلى الجحيم لقى الشيخ هناك شعراءَ النار، وكان منهم الكثيرون وفى مقدمتهم امرؤ القيس، وبشار بن بُرد، وعنترة العَبْسى..

وقد ظل الشيخ يناقشهم فى كثير من قضايا اللغة والأدب فى شعرهم وشعر غيرهم، فى الحياة الأولى، لكنّ الشيخ يُذْهَلُ، وما يلبث أن يشعر بالرضا، حين يرى إبليس اللعين وهو يضطرب فى السلاسل والأغلال فى جَنَبات الجحيم..

حوار مع إبليس

الشيخ ابن القارح:

الحمد لله الذى أَمْكَنَ منك، ياعدوّ الله، وعدوّ أوليائه!!!
لقد أهلكت من بنى آدم طوائف ومِللاً، لايعلمُ عَدَدهَا إلا الله!!!

إبليس:

ومن أنت؟

الشيخ ابن القارح:

رجل من أهل حَلَب. . كانت صناعتى الأدب.

إبليس. . فى سخرية:

بِئْسَت الصناعة فى كل مكان وزمان إنها لا تَهَبُ من العيش إلا أقَلَّه وأذلَّه!!!. .

وكم أهلكت مثلك!! فهنيئا لك إن نجَوْتَ!!

لكنّ لى إليك حاجة!!

ابن القارح:

ماذا تقول؟

إبليس:

أقول.. إنّ لى إليك حاجة..

الشيخ ابن القارح:

إنى لا أقدرُ لكَ على نَفْع ولا يقدر أحد منِ أمثالى أن يقّدم لك خيرًا أو نفعاً، فإن آية الله سَبَقَتْ فى أهل النار؟

إبليس:

أيّةُ أيةٍ.

الشيخ ابن القارح:

قولُ الله سبحانه وتعالى فى أهل النار..

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾[1].

إبليس.. فى خبث:

أنا لا أسألك فى شئ من ذلك.. وإنما أسألك فى أمرٍ جهلتُ حقيقته..

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٠.

الشيخ:

سَلْ ما شئت!

إبليس: إنّ الخمر قد حُرمتْ عليكم فى الدنيا وأُحلّتْ لكم فى الآخرة.

الشيخ :

خمر الآخرة غير خمر الدنيا!

إبليس:

سؤالى هو: هل يفعل أهل الجنة بالولدان المُخلدين، ما كان يفعله أهل القَريَات فى زمان لُوط؟!!

الشيخ.. فى فزع وغضب:

عليك اللعنة فى الدنيا والآخرة.. أفى هذا العذاب من الجحيم وتسأل هذا المنكر من السؤال؟

ومع ذلك اسمع يا عدوّ الله فى هذه القضية.. ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾**﴾[1] صدق الله العظيم.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥.

خسئتَ يا عدوّ الله . . خسئتَ يا عدو الله . . وعدوّ رسول الله والمؤمنين جميعاً.

العودة إلى طريق الجنة من جديد

ويدرك الشيخ قلة الفوائد لدى أهل النار، فيتركهم فى شقائهم السرمدىّ، ويعود لمحلّه فى الجنان، وهناك يلقى أبا البشر آدم عليه السلام فى الطريق، على مَنَعَطَفٍ هناك . .

عودة إلى مسمع آدم مع الشيخ فى الجنة

الشيخ:

يا أبانا صلَّى الله عليك . .

آدم:

وعليك يا ولدى . .

الشيخ:

يُرْوَى لنا عنك شعر عربىّ منه قولك:

نحـنُ بنو الأرض وسكّـانهـا

منها خُلِقْنا وإليهـا نَعُـودْ

والسَّعــدُ لا يَبْقَى لأصحـــابه

والنَّحْسُ تَمْحُوْهُ ليالى السعودْ

آدم:

إنّ هذا القول حق، وما نَطَق به إلا بعضُ الحكماء، ولكنى لم أسمعْ به، حتى هذه اللحظة.

الشيخ.. فى رقه:

لَعَلَّك يا أبانا قُلْتَه ثم نَسيته فقد علمنا أن النسيان متسرع إليك، وحَسْبنا شهيداً على ذلك الآية الَمتْلُوةُ فى فرقان محمد ﷺ ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾[1].

آدم:

نعم !!!

الشيخ:

وزعم بعض العلماء أنك إنما سُمِّيت إنسانا لنسيانك، وقد ذكر أبو تمام الشاعر ذلك فى قوله من قصيدة رائعة:

لاتَنْسَيَنْ تلك العهــود وإنما

سُمِّيتَ إنســانا لأنك ناَسِ!!!

---

(١) سورة طه الآية ١١٥.

ويرى نحاة البَصْرة أن الإنسان من الأُنس!!!

آدم.. يقاطعه:

أَبَيْتمُ إلا عقوقاً وأذيّة..

لقد كنتُ أتكلم بالعربية وأنا فى الجنة، فلما هبطتُ الأرض نُقِلَ لسانى إلى السُريانية، فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت.

الشيخ:

ثم ماذا يا أبانا؟

آدم:

ولّما ردّنى الله سبحانه وتعالى إلى الجنة، عادت إلىّ العربية، فَأَىَّ حينٍ نظمتُ هذا الشعر؟ فى الدار العاجلة أم فى الدار الآجلة؟

الشيخ:

لا أدرى يا أبانا؟

آدم:

الذى قال ذلك، يجب أن يكون قد قاله، وهو فى الدار الماكرة ألا ترى قوله: «منها خُلقنا وإليها نَعودُ»

فكيف أقول هذا المقال ولسانى سُرْيانى؟

الشيخ:

نعم يا أبانا.. صدقتَ يا أبانا.

آدم:

وأما الجنة قبل أن أخرج منها، فلم أكُنْ أدرى بالموت فيها، وأما بعد رجوعى إليها فلا معنى لقولى «وإليها نعود» لأنه كذب لا محالة!!! فنحن معاشر أهل الجنة خالدون مخلّدون..

انتقال

ويتكّئ الشيخ على مَفْرش من السُّندس، وَيُؤْمَرُ الحُورُ العينُ أن يحملنَ ذلك المَفْرشَ، فَيَضَعُنَهُ على سريرٍ من سُرُرُ أهل الجنة، وإنما هو زَبَرْجَد أو عَسْجَدْ، ويَخَلْق البارئ فيه حَلَقاً من الذهب، تُطيف به كُلَّ الأنحاء، حتى يأخذ كلُ واحدٍ من الغلمان وكلِ واحدة من الجوارى الحِسان بالجُمان، واحدةً من تلك الحلق.. فيحمل على تلك الحال، إلى محلّه المشيّد بدار الخلود، فكلما مرّ بشجرة، رشَّتْهُ أغصانها بماء الورد، قد خُلط بماء الكافور والمسك العتيق، وتناديه الثمرات من كل مكان: هل لك يا أبا الحَسَن؟ هل لك؟ فإذا نظر عنقوداً من العنب أو غيره، انْفَلَتَ من الشجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة إليه بأمر الله... وأهل الجنة يَلْقَونَه بأصناف التحية، ﴿**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[١٠](١).

---

(١) الآية ١٠ من سورة يونس